تعريف موجز
بدين الإسلام

علي الطنطاوي

منبر التوحيد والجهاد

هذه خواطر قدمتها بين يدي كتابي " تعريف عام بدين الإسلام " وأعددت بها للقارئ الجو الذي يعينه على الدخول فيه :

إذا كنت مسافراً وحدك فرأيت أمامك مفرق طريقين : طريقاً صعباً صاعداً في الجبل، وطريقاً سهلاً منحدراً إلى السهل.

الأول: فيه وعورة وحجارة منثورة، وأشواك وحفر، يصعب تسلّقه، ويتعسر السير فيه، ولكن أمامه لوحة نصبتها الحكومة، فيها أن هذا الطريق على وعورة أوّله، وصعوبة مسلكه، هو الطريق الصحيح، الذي يوصل إلى المدينة الكبيرة، والغاية المقصودة.

والثاني: معبّد، تظلّله الأشجار ذوات الأزاهار والثمار، وعلى جانبيه المقاهي (١) والملاهي فيها كل ما يلذ القلب، ويسرّ العين، ويشنف (٢) الأذن، ولكن عليه لوحة فيها أنه طريق خطر مهلك، آخره هُوّة فيها الموت المحقق، والهلاك الأكيد.

فأي الطريقين تسلك ؟

لا شك أن النفس تميل إلى السهل دون الصعب، واللذيذ دون المؤلم، وتحب الانطلاق وتكره القيود، هذه فطرة فطرها الله عليها، ولو ترك الإنسان نفسه وهواها، وانقاد لها، سلك الطريق الثاني، ولكنّ العقل يتدخل، يوازن بين اللذة القصيرة الحاضرة يعقبها ألم طويل، والألم العارض المؤقت تكون بعده لذة باقية، فيُؤْثِر الأول.

هذا هو مثال طريق الجنة، وطريق النار.

طريق النار: فيه كل ما هو لذيذ ممتع، تميل إليه النفس، يدفع إليه الهوى، فيه النظر إلى الجمال ومفاتنه، فيه الاستجابة للشهوة ولذّاتها، فيه أخذ المال من كل طريق، والمال محبوب مرغوب فيه، وفيه الانطلاق والتحرر، والنفوس تحب الحرية والانطلاق، وتكره القيود.

وطريق الجنة: فيه المشقات والصعاب، فيه القيود والحدود، فيه مخالفة النفس، ومجانبة الهوى، ولكن عاقبة هذه المشقة المؤقتة في هذا الطريق، اللذة الدائمة في الآخرة. وثمرة اللذة العارضة في طريق النار، الألم المستمر في جهنم. كالتلميذ ليالي الامتحان يتألم حين يترك أهله عاكفين على الرائي (٣)، يشاهدون ما يسر ويمتع، وينفرد هو بكتبه ودفاتره، فيجد

---

(١) أقهى : داوم على شرب القهوة .

(٢) الشَّنْف : القُرْط (الحلق) . والتعبير هنا على المجاز .

(٣) الرائي : كلمة وضعتها للتلفزيون ، وهي (اسم فاعل) بمعنى (اسم المفعول) على المجاز العقلي ، كقوله تعالى : (فهو في عيشة راضية ...) ، أي : في عيشة مرضية .

بعد هذا الألم لذة النجاح. وكالمريض يصبر أياماً على ألم الحِمْية عن أطايب الطعام فينال بعدها سعادة الصحة.

وضع الله الطريقين أمامنا، ووضع فينا مَلَكة نفرّق بها بينهما، نعرف بها الخير من الشر، سواء في ذلك العالم والجاهل، والكبير والصغير. كلٌّ منهم يستريح ضميره إذا عمل الخير، ويترعج إذا أتى الشر، بل إن هذه الملكة موجودة حتى في الحيوان : القط إذا ألقيت إليه بقطعة اللحم أكلها أمامك، متمهلاً مطمئناً، وإذا خطفها ذهب بعيداً، فأكلها على عجل، وعينه عليك يخاف أن تلحق به، فتترعها منه، أفليس معنى هذا أنه أدرك أن اللقمة الأولى حق له، والثانية عدوان منه ؟.

أليس هذا تفريقاً بين الحق والباطل، والحلال والحرام ؟

والكلب إذا عمل حسناً تمسّح بصاحبه، كأنه يطلب منه المكافأة. وإذا أذنب ذنباً نأى فوقف بعيداً، يبصبص بذنبه، كأنه يبدي المعذرة أو يتوقع العقاب.

وهذا تأويل قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾.

وأقام الله على طريق الجنة دعاةً يدعون إليه، ويدلّون عليه، هم الأنبياء. كما أقام على طريق النار دعاةٌ يدعون إليه، ويرغّبون فيه هم الشَيطين (٤). وجعل العلماء ورثة الأنبياء : فاطمة بنت محمد ما ورثت منه مالاً ولا عقاراً، والعلماء ورثوا منه هذه (الدعوة)، فمن قام بها حق قيامها استحق شرف هذا الميراث.

وهذه (الدعوة) صعبة، لأن النفس البشرية طبعت على الميل إلى الحرية، والدين يُقيّدها، وعلى الانطلاق وراء اللذة، والدين يُمسكها، فمن يدعو إلى الفسوق والعصيان، يوافق طبيعتها، فتمشي معه مشي الماء في المنحدر. إصْعد إلى خزان الماء في رأس الجبل، فاثقبه بضربة معْوَل، يترل الماء وأنت واقف حتى يستقر في قرارة الوادي، فإذا أردت أن تعيده لم يَعُد إلا بمضخات، ومشقات، ونفقات بالغات. والصخرة الراسية في الذروة، لا تحتاج إلا إلى زحزحتها وإمالتها، حتى تتدحرج وتهوي، تترل بلا مشقة ولا تعب، فإذا أردت أن ترجعها، وجدت المتاعب والمشقات.

وهذا هو مثال الإنسان.

الرفيق الشرير يقول لك : ها هنا امرأة جميلة ترقص عارية، فتميل إليها نفسك، ويدفعك إليها هواك، ويسوقك إليها ألف شيطان، فلا تشعر إلا وأنت على بابها. فإذا جاء الواعظ ليصرفك عنها، صَعُب عليك الاستجابة إليه، ومقاومة ميل نفسك، وهوى قلبك.

فدعاة الشر لا يتعبون ولا يبذلون جهداً، ولكن التعب وبذل الجهد على دعاة الخير، وعلى الواعظ. داعي الشر عنده كل ما تميل إليه النفس، من العورات المكشوفة، والهوى المحرم، وكل ما فيه متعة العين والأذن ولذة القلب والجسد، أما داعي الخير، فما عنده إلا المنع.

---

(٤) هم اختاروا ذلك بكفرهم ما أجبرهم الله عليه .

ترى البنت المتكشفة فتميل إلى اجتلاء محاسنها، فيقول لك : غُضَّ بصرك عنها، ولا تنظر إليها، ويجد التاجر الربح السهل من الربا، يناله بلا كدّ ولا تعب، والنفس تميل إليه، فيقول له : دعه وانصرف عنه، ولا تمدّ يدك إليه. ويبصر الموظف رفيقه يأخذ من الرشوة في دقيقة واحدة ما يعادل مرتّبه عن ستة أشهر، ويتصور ما يكون له بها من سعة، وما يقضي بها من حاجات، فيقول له : لا تأخذها، ولا تستمتع بها. يقول لهم : اتركوا هذه اللذات الحاضرة المؤكدة، لتنالوا اللذات الآتية المغيّبة. دعوا ما ترون وما تبصرون، إلى ما لا ترون الآن ولا تبصرون. قاوموا مَيْل نفوسكم، وهوى قلوبكم.

وذلك كله ثقيل على النفس. ولا تنكروا وصفي الدين بأنه ثقيل، فإن الله سماه بذلك في القرآن، فقال : ﴿ سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾. وكل المعالي ثقيلات على النفس، ترك التلميذ الرائي والإقبال على الدرس الثقيل، وترك العالم مجلس التسلية والاشتغال بالقراءة والإقراء ثقيل، وترك النائم فراشه والنهوض إلى صلاة الفجر ثقيل، وهجر الرجل زوجته وولده ومشيه إلى الجهاد ثقيل.

لذلك تجد الطالحين أكثر من الصالحين، والغافلين السادرين في الغي أكثر من الذاكرين السالكين سبيل الرشاد، ولذلك كان إتّباع الكثرة بلا بصرة ولا دليل، يُضل فاعله في أكثر الأحيان... ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾. ولولا أن القلة والنُّدْرة، من صفات السمو والرفعة، ما كان الألَماس (٥) نادراً، والفحم كثيراً موفوراً، ولا كان العباقرة والنابغون، والأبطال المتميزون، قلة في الناس.

إن الأنبياء وورثتهم من صالحي العلماء هم الدعاة إلى طريق الجنة، والشياطين وأعوانهم من الفاسدين المفسدين من الناس، هم الدعاة إلى طريق النار. وقد جعل فينا - في داخلنا - أنصاراً لهؤلاء وأنصاراً لهؤلاء، في داخلنا حزب هو مع الأنبياء، وحزب هو حزب الشياطين في النفس الأمارة بالسوء.

تقولون : ما العقل وما النفس ؟..

ولست أدعي أني أضع لكل منهما حدوداً ظاهرة، وأميّزها تمييزاً واضحاً. فإن هذه الأمور لا تزال في ظلمات جَهْلنا بها، لم يستطع العلم أن يضيء جوانبها. كلنا يقول : (قلت لنفسي) و (قال لي عقلي)، فما أنت وما نفسك ؟ وما نفسك وما عقلك ؟ لم يتضح ذلك لنا بعد (٦)، فلست أكشف هذا المجهول، ولكن أذكّر بمثال مشاهد معلوم :

---

(٥) الذي جاء في أكثر كتب اللغة : أن لامها أصلية ، وذلك خلافاً لما في " القاموس المحيط " للفيروز آبادي .

(٦) إذا قلت (أنا) فإن جسدي جزء من الـ (أنا) ، ولكن ليس كل الـ (أنا) لأن المرء قد تبتر يداه ورجلاه ولا تنقص الـ (أنا) بالنسبة إليه ، ونفسي – أي ميولي

تكون نائماً في ليالي الشتاء، متمتعاً بدفء الفراش، ولذة المنام، فتسمع قرع المنبه يدعوك إلى الصلاة، فتحسّ صوتاً من داخلك يقول لك : (قم إلى الصلاة). فإذا جئت تقوم، سمعت صوتاً آخر، يقول لك : (نم قليلاً). فيعود الصوت الأول يقول : (الصلاة خير من النوم). فيقول الثاني : (النوم لذيذ، والوقت متسع، فتأخر دقائق). ولا يزال الصوتان يتعاقبان، تعاقب دقات الساعة (نم. قم. نم. قم..) (٧). هذا هو العقل، وهذه هي النفس.

وهذا مثال يتكرر آلاف المرات، في آلاف الصور، كلما عرض للمرء مثل هذا الموقف فوقف أمام لذة محرمة تدعوه نفسه إلى غشيانها، وكان في قلبه إيمان، يدفع عقله إلى منعه منها، وعلى مقدار ما يكون من انتصار العقل، تكون قوة هذا الإيمان.

وعواطفي ولذاتي وآلامي – جزء من الـ (أنا) وليس كل الـ (أنا) ، لأن المُشاهَد أن الإنساني يبدل عواطفه وميوله ، وأن ما يلذني اليوم وأنا قد دخلت عشر التسعين من عمري ، ما كان يلذني وأنا شاب ، وما كانن يؤلمني وأنا شاب ، لم يعد يؤلمني اليوم .

فالجسد إذن يتبدل – حتى لا تبقى فيه خلية مما كان فيه قبل سنين – والنفس تتبدل آمالها وآلامها ، فتحب ما كانت تكره ... وتكره ما كانت تحب . فما الشيء الذي لا يتبدل في ، والذي هو (أنا) على التحقيق ؟ .

هو الروح . وما الروح ؟ .

أطلعنا الله على كثير من وظائف أعضاء الجسم وأسرارها ، وأمراضه وعلاجها ، وعلى كثير من أحوال النفس وعوارضها ، وقال لنا إن من النفوس الأمارة بالسوء ، واللوامة ، والمطمئنة ، وهي نفس واحدة ، ولكن هذه أحوال تعرض فتصبغها بصبغتها ، وإن النفس ذائقة الموت ، ولكنه لم يطلعنا على شيء من أحوال الروح لأنها من أمر ربي . الروح لا تخضع لقيود الزمان والمكان . فقد ينام النائم ربع ساعة أمامك ، فيرى أنه سافر إلى أمريكا أو الهند ، وعاش عشرين أو ثلاثين سنة ، وأحس بأقصى السرور أو بمنتهى الألم . فكيف دخلت عشرون سنة في عشرين دقيقة ؟ كيف تداخل المكانان ؟ هذا مثال لعذاب القبر ونعيمه .

الروح لا يؤثر فيها المرض ولا الصحة ، الروح هي التي كانت موجودة قبل ارتباطها بهذا الجسد وبهذه النفس ، وستبقى بعد تحلل الجسد وفناء النفس . فأنا إذن الروح . وقد بدت لي هذه المعاني وأنا أعدّ الكتاب للطبعة الخامسة .

(٧) ويحس مثل ذلك من يريد القفز من فوق حفرة أو ساقية ، وهو يرجو الوصول ويخشى السقوط ، ويسمع من نفسه صوتين يتعاقبان : (ثب . ارجع . ثب . ارجع) . فإن وثب عند قول : (ثب) ولم يتردد نجح . وإن تردد حتى جاء قول : (ارجع) ووثب سقط وهذا مجرب .

وليس معنى هذا أن ينتصر العقل دائماً، وأن لا يقارب المسلم المعاصي أبداً. فالإسلام دين الفطرة، دين الواقع، والواقع أن الله خلق خلقاً للطاعة الخالصة، ولمحض العبادة، هم (الملائكة) و لم يجعلنا الله ملائكة، وخلق خلقاً شأنهم المعصية والكفر هم (الشياطين)، و لم يجعلنا كالشياطين، وخلق خلقاً لم يعطهم عقولاً ولكن غرائز، فلا يُكلّفون ولا يسألون، وهم (البهائم والوحوش)، و لم يجعلنا الله وحوشاً ولا بهائم.

فما نحن إذن ؟ ما الإنسان ؟

الإنسان مخلوق متميز، فيه شيء من الملائكة، وشيء من الشياطين، وشيء من البهائم والوحوش، فإذا استغرق في العبادة، وصفا قلبه إلى الله عند المناجاة، وذاق حلاوة الإيمان في لحظات التجلّي، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الملكية، فأشبه الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإذا جحد خالقه، وأنكر ربه، فكفر به، أو أشرك معه في عبادةٍ غيره، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الشيطانية.

وإذا عصف به الغضب، فأوتر أعصابه، وألهب دمه، وشدّ عضلاته، فلم يعد له أمنية إلا أن يتمكن من خصمه فيعضّه بأسنانه، وينشب فيه أظافره، ويطبق على عنقه بأصابعه، فيخنقه خنقاً ثم يدعسه دعساً (٨)، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الوحشية، فلم يبق بينه وبين النمر والذئب كبير فرق.

وإذا عضّه الجوع، وبرّح به العطش، وانحصرت آماله في رغيف يملأ معدته، وكأس تبلّ صداه، أو تملكته الشهوة، وسيطرت على نفسه (الرغبة الجنسية)، فغلا بها دمه، واشتعلت بها عروقه، وامتلأ ذهنه بخيالات الشّبق وأمانيه، غلبت عليه في هذه الحال الصفة البهيمية، فكان كالفحل أو الحصان، أو ما شئت من أصناف الحيوان.

هذه حقيقة الإنسان، فيه الاستعداد للخير، والاستعداد للشر، أعطاه الله الأمرين، ومنحه العقل الذي يميز به بينهما، والإرادة التي يستطيع بها أن يحقق أحدهما، فإن أحسن استعمال عقله في التمييز، وأحسن استعمال إرادته في التنفيذ، ونمّى استعداده للخير، حتى تخلّق به وأنجزه، كان في الآخرة من السعداء. وإن كانت الأخرى، كان من المعذبين.

صحيح أن النفس مطبوعة على الحرية، والدين قَيْد، ولكن لا بد من هذا القيد، ولو تركناها تأتي الفواحش كما تشاء انطلاقاً من طبع الحرية فيها، لصار المجتمع (مارستاناً) كبيراً، لأن الحرية المطلقة للمجانين. المجنون يفعل كل ما يخطر على باله، يمشي في الطريق عارياً، ويركب على كتفي سائق السيارة العامة، ويستحسن ثوبك فيأخذه من فوق

(٨) كلمة دعس فصيحة ، أما قولهم دهس (دهسته السيارة) فما له أصل .

كتفيك، وتعجبه ابنتك فيطلبها منك بحق الغرام، لا بشرعة الإسلام. المجنون هو الحر الحرية المطلقة، وأما العاقل، فإن عقله يقيد حريته.

وما العقل ؟..

إنه قيد. إن لفظه مشتق من الأصل الذي اشتق منه (العقال)، أي الحبل الذي يُقيَّد به الجمل. والحكمة، قريبة المعنى، من (حَكَمة الدابة) وهي كذلك قيد. والحضارة قيد، لأنها لا تدعك تفعل ما تريد، بل توجب عليك مراعاة حقوق الناس وأعراف المجتمع. والعدالة قيد، لأنها تضع نهاية لحريتك، حيث تبدأ حرية جارك.

ثم إن المعاصي لذيذة، لأنها توافق طبيعة النفس، إنك تجد لذة في سماع الغيبة والمشاركة فيها، لأنها تشعرك بأنك خير من هذا الذي يذكرونه بالسوء وأفضل. والسرقة لذيذة لأن فيها امتلاك المال بلا كدّ ولا نصب. والزنا لذيذ لأن فيه إعطاء النفس هواها، وإنالتها مشتهاها. والغشُّ في الامتحان لذيذ، لأنه يوصل إلى النجاح بلا جهد. والهرب من الواجب - مهما كان - لذيذ على النفس، لأنه فيه الراحة والكسل.

ولكن الإنسان حين يفكر ويستعمل عقله، يجد أن هذه الحرية المؤقتة لا تساوي ما بعدها من سجن في جهنم طويل، وهذه اللذة المحرمة، لا تعدل ما بعدها من العذاب.

من يرضى أن نجعل بيننا وبينه عهداً (اتفاقية عند الكاتب العدل)، مدتها سنة، نعطيه خلالها كل ما يطلب من مال، ونسكنه في القصر الذي يريد، في البلد الذي يختار، ونزوّجه بن شاء من النساء، مثنى وثلاث ورباع، ولو طلق كل عشية واحدة، وتزوج كل صباح أخرى، ولا نمنع عنه شيئاً يريده، ولكنا إذا انقضت السنة، علقناه من عنقه على المشنقة حتى يموت ؟ ألا يقول : (تعساً وبُعْداً للذة سنة بعدها الموت ؟) ألا يتصور نفسه ساعة يعلَّق على المشنقة، فيرى أنه لم يبق في يده شيء منها ؟ مع أن ألم الشنق بعض دقيقة، وعذاب الآخرة دهر طويل.

ليس منا أحد لم يقارف في عمره معصية، ولم يجد لهذه المعصية لذة، أقلها أنه آثر متعة الفراش مرة على القيام لصلاة الفجر، فماذا بقي في أيدينا الآن من هذه اللذة التي أحسسنا بها قبل عشر سنين ؟ وليس منا أحد لم يكره نفسه على أداء طاعة، ولم يحمل لهذه الطاعة ألماً، أقله الجوع والعطش في رمضان، فماذا بقي في نفوسنا الآن، من ألم الجوع في رمضان، الذي جاء من عشر سنين ؟ لا شيء.

ذهبت لذات المعاصي وبقي عقابها، وذهبت آلام الطاعات وبقي ثوابها.

وساعات الموت، ما الذي يبقى لنا - تلك الساعة - من جميع اللذائذ التي ذقناها، والآلام التي حملناها ؟.

إن كل مؤمن يريد أن يتوب ويرجع إلى الله، ولكنه يؤجّل ويسوّف. أنا كنت أقول : إذ حججتُ تبتُ وأنبت، ثم رأيت أنني حججت وما تبت. وكنت أقول : إذا بلغت الأربعين

تبتُ وأنبت، فبلغتها وما تبت، وجاوزت الخامسة والثمانين وما تبت، وشبت وما تبت. وليس معنى هذا أني مقيم على المحرمات، مرتكب للفواحش، لا وبحمد الله، ولكن معناه، أن الإنسان يرجو لنفسه الصلاح، ولكنه يسوّف، يظن أن في الأجل فسحة، يحسب أن العمر طويل، فيرى الموت قد طرقه فجأة. وقد رأيت أنا الموت مرتين، وعرفت ما شعور الميت، لقد ندمت على كل دقيقة أضعتها في غير طاعة... أي والله. فلما نجوت، بقيت على هذا الشعور شهوراً، صرت فيها صالحاً، ثم انغمست مرة ثانية في غمرة الحياة، ونسيت... نسيت الموت.

كلنا ننسى الموت، نرى الأموات يمرون بنا كل يوم، ولكن لا نتصور أننا سنموت. نقف في صلاة الجنازة ونحن نفكر في الدنيا، يظن كل واحد منا أن الموت كُتب على الناس كلهم إلا عليه، مع أن الإنسان يعلم أن الدنيا مولّية عنه، وأنه مُوَلٍّ هو عنها.

مهما عاش الإنسان فهو ميت، ليعش ستين سنة، ليعش سبعين، ليعش مئة سنة، ألا تنقضي ؟ ألا تعرفون من عاش مئة سنة ثم مات ؟ نوح لبث يدعو قومه تسعمئة وخمسين سنة. فأين نوح الآن ؟ هل بقيت له الدنيا ؟ هل سلم من الموت ؟ فلماذا لا نفكر في الموت، ونستعد له، إن كان لا بد منه ؟

من كانت أمامه سَفْرَةٌ لا يعرف موعدها ألا يتهيأ لها، حتى يكون جائزاً فإذا دُعي أجاب ؟ رأيت - وكنت (٩) الصيف الماضي في عمان - المعلمين الأردنيين الذين تعاقدوا مع المملكة العربية السعودية للعمل فيها، وقد خبّروهم أن الطيارات تنقلهم تباعاً، فليستعدوا، فمن أنجز جواز سفره، وأكمل حزم متاعه، وودّع أهله، ووضع إلى جنبه حقيبة ثيابه ؛ فإنه يلبي في أي ساعة يُدعى فيها، فيلبس ثيابه ويحمل حقيبته ويمضي إلى المطار. ومن أهمل وأجّل، حتى إذا دُعي قال لهم : أمهلوني حتى أنزل إلى السوق فأشري متاعي، وأذهب إلى القرية فأودّع أهلي، وأراجع الحكومة لأستخرج جوازي، لم يمهلوه، بل ذهبوا وتركوه. ولكن ملك الموت إذا جاء لا يتركه ويذهب، بل يأخذه كُرهاً، يأخذه ولو كان آبياً، لا يمهله ساعة، ولا دقيقة، ولا لمحة، ولا يملك أن يمهله. وليس يعرف أحد منا متى يأتي ليأخذه ملك الموت.

وما الموت ؟ ما حقيقته ؟ إن لحياة الإنسان مراحل، فمرحلةٌ وهو جنين في بطن أمه، ومرحلة وهو في هذه الدنيا، ومرحلة وهو في البرزخ بين الدنيا والآخرة، من يوم موته إلى يوم القيامة، والمرحلة الدائمة وهي الحياة الحقيقية، مرحلة الآخرة. ونسبة كل مرحلة لما قبلها كنسبة ما بعدها إليها.

إن سعة هذه الدنيا بالنسبة لضيق بطن الأم، كسعة البرزخ بالنسبة لهذه الدنيا. وسعة الآخرة بالنسبة للبرزخ أن الجنين يحسب دنياه هذا البطن، ولو عقل وفكر، وسئل وأجاب،

---

(٩) أي حين كتابة هذه الكلمة .

لقال بأن خروجه منه موت محقق، ولو كان في البطن توأمان، فولد أحدهما قبل الآخر، ورآه نزل قبله، ففارقه وقد كان معه، لقال بأنه مات، ودفن في الأعماق. ولو رأى المشيمة التي كانت من جسده، ملقاة مع القمامة لظن بأنها هي أخوه، وبكى عليها كما تبكي الأم حين ترى جسد ولدها الذي كانت تخشى عليه مسّ الغبار قد أودع التراب، لا تدري أن هذا الجسد كالمشيمة، قميص توسخ وألقي، ثوب انتهى وقته، وانقضت الحاجة إليه.

هذا هو الموت، إنه (ولادة جديدة)، خروج إلى مرحلة أطول وأرحب من مراحل الحياة، وما هذه الدنيا إلا طريق، حياتنا فيها كحياة المهاجر إلى أميركا، إنه يحسن اختيار غرفته في الباخرة، ويحرص على راحته فيها، ويهتم بها، ولكن هل ينفق ماله كله على تجديد فرشها، ونقش جدرانها، حتى لا يبقى معه شيءٍ فيصل إلى أميركا مفلساً خالي الوفاض ؟ أم يقول : إن مدة بقائي في هذه الغرفة أسبوعاً، فأنا أرضى فيه بما تيسر، وأُمشِّي فيه الحال، وأدّخر المال لإعداد الدار التي سأسكنها في أميركا ؛ لأن فيها المقام ؟

أتعرفون ما مثال الدنيا والآخرة ؟

أعلنت أميركا مرة عن تجربة ذرية تجريها في جزيرة صغيرة في جزر البحر الهادي، وكان ذلك من خمس عشرة سنة (أو نحوها)، وكان في الجزيرة بضع مئات من السكان من صياديّ الأسماك، فطلبت إليهم إخلاء مساكنهم، على أن تعوّضهم عنها وعما فيها، ببيوت مفروشة، في أي بلد يريدون من البلدان، على أن يعلنوا استعدادهم لإخلائها، وإحصاءهم لما فيها، قبل موعد كذا (وحدّدْت لهم موعداً)، ثم تأتي الطيارات فتحملهم من الجزيرة.

فمنهم من أعلن الاستعداد للإخلاء، وقدّم الإحصاء قبل الموعد، ومنهم من أهمل وأجّل حتى قرب الموعد، ومنهم من قال : هذا كله كذب، ما في الوجود مكان اسمه أميركا، وما الدنيا إلا هذه الجزيرة، ولسنا نتركها، ولا نرضى أن نفارقها. ونسي أن الجزيرة ستُنسف كلها فتكون أثراً بعد أن كانت عيناً.

هذا مثل الدنيا، والأول مثل المؤمن الذي يفكر في آخرته، ويستعد بالتوبة والطاعة دائماً للقاء ربه، والثاني مثل المؤمن المقصر العاصي، والثالث مثل المادي الكافر، الذي يقول : إنما هي حياتنا الدنيا، لا حياة بعدها، وإن الموت نوم طويل، وراحة دائمة، وفناء محقق.

وليس معنى هذا أن الإسلام يطلب من المسلم أن يزهد في الدنيا مرة واحدة، وينفض أصابعه منها، ولا أن يسكن المساجد فلا يخرج منها، ولا أن يأوي إلى مغارة يمضي حياته فيها، لا... بل إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا في الحضارة الخيرة سادة المتحضرين، وفي المال أغنى الأغنياء، وفي العلم - العلم كله - أعلم العلماء، وأن يعرف كل مسلم حق جسده عليه بالغذاء والرياضة، وحق نفسه بالتسلية والإجمام والمتعة بغير

الحرام، وحق أهله بالرعاية وحسن الصحبة، وحق ولده بالتربية والتوجيه والعطف، وحق المجتمع بالعمل على كل ما يصلحه، كما يعرف حق الله بالتوحيد والطاعة.

يجمع المال ولكن من الحلال، ويستمتع بالطيبات المباحة، ويكون في الدنيا على أحسن ما يكون عليه أهلها، بشرط أن يبقى صحيح التوحيد، لا يداخل إيمانه شرك ظاهر أو خفي، صحيح الإسلام، يدع المحرمات، ويأتي الفرائض، وأن يكون المال في يده لا في قلبه، لا يكون اعتماده عليه، بل يكون اعتماده على ربه، وأن يكون رضا الله هو مقصده ومبتغاه.

دين الإسلام

قلت مرة لتلاميذي : لو جاءكم رجل أجنبي، فقال لكم : إن لديه ساعة من الزمن، يريد أن يفهم فيها ما الإسلام، فكيف تفهمونه الإسلام في ساعة ؟. قالوا : هذا مستحيل، ولا بد له أن يدرس التوحيد والتجويد، والتفسير والحديث والفقه والأصول، ويدخل في مشكلات ومسائل، لا يخرج منها في خمس سنين. قلت : سبحان الله، أما كان الأعرابي يَقْدُم على رسول الله ﷺ فَيَلْبَثُ عنده يوماً أو بعض يوم، فيعرف الإسلام ويحمله إلى قومه، فيكون لهم مرشداً ومعلماً، ويكون للإسلام داعياً ومبلغاً ؟ وأبلغ من هذا، أما شرح الرسول الدينَ كله في حديث (سؤال جبريل) بثلاث جمل، تكلم فيها عن : الإيمان، والإسلام، والإحسان ؟ فلماذا لا نشرحه اليوم في ساعة ؟.

فما الإسلام ؟ وكيف يكون الدخول فيه ؟

كل نِحْلة من النِّحل الصحيحة والباطلة، وكل جمعية من الجمعيات النافعة والضارة، وكل حزبٍ من الأحزاب الخيّرة والشريرة، لكل ذلك (مبادئ) وأسس فكرية، ومسائل عقائدية (١٠)، تحدد غايته وتوجه سيره، وتكون كالدستور لأعضائه وأتباعه.

ومن أراد أن ينتسب إلى واحد منها، نظر أولاً إلى هذه (المبادئ)، فإن ارتضاها واعتقد صحتها، وقبل بها بفكره الواعي وبعقله الباطن، ولم يبق عنده شك فيها، طلب (الانتساب) إلى الجمعية، فانتظم في سلك أعضائها ومتبعيها، ووجب عليه أن يقوم بالأعمال التي يُلزمه بها دستورها، ويدفع رسم الاشتراك الذي يحدده نظامها، وكن عليه - بعد ذلك - أن يدل بسلوكه على إخلاصه لمبادئها، فيتذكر هذه المبادئ دائماً، فلا يأتي من الأعمال ما يخالفها، بل يكون بأخلاقه وسلوكه، مثالاً حسناً عليها، وداعية فعلياً لها.

فالعضوية في الجمعية هي : (عِلْمٌ) بنظامها، و (اعتقاد) بمبادئها، و (إطاعة) لأحكامها، و (سلوك) في الحياة موافق لها. هذا وضع عام، ينطبق على الإسلام. فمن أراد أن يدخل في دين الإسلام عليه أولاً أن يقبل أسسه، وأن يصدق بها تصديقاً جازماً، حتى تكون له (عقيدة).

وهذه الأسس تتلخص في أن يعتقد أن هذا العالم المادي ليس كل شيء، وأن هذه الحياة الدنيا ليست هي الحياة كلها. فالإنسان كان موجوداً قبل أن يولد، وسيظل موجوداً بعد

---

(١٠) تجوز النسبة إلى الجمع إذا جرى مجرى العلم ، فتقول : (حقـــوق دوليـــة) ، و (قوانين عمالية) ، و (مظاهرات طلابية) ، و (مسائل عقائدية) . كما قالوا كذلك : (عالم أصولي) ، و (رجل أنصاري) ، و (مائدة ملوكية) ، و (رسائل إخوانية) .

أن يموت، وأنه لم يُوجد نفسه، بل وجد قبل أن يعرف نفسه، ولم توجده هذه الجمادات من حوله، لأنه عاقل ولا عقل لها، بل أوجده وأوجدها وأوجد هذه العوالم كلها من العدم إله واحد، هو وحده الذي يحيي ويميت، وهو الذي خلق كل شيء، وإن شاء أفناه، وذهب به، وهذا الإله لا يشبه شيئاً مما في العوالم، قديم لا أول له، باق لا آخر له، قادر لا حدود لقدرته، عالم لا يخفى شيء عن علمه، عادل ولكن لا تقاس عدالته المطلقة بمقاييس العدالة البشرية، هو الذي وضع نواميس الكون التي نسميها (قوانين الطبيعة)، وجعل كل شيء فيها بمقدار، وحدّد من الأزل جزئياته وأنواعه، وما يطرأ عليه (على الأحياء وعلى الجمادات) من حركة وسكون، وثبات وتحوّل، وفعل وترك، ومنح الإنسان عقلاً يحكم به على كثير من الأمور، التي جعلها خاضعة لتصرفه. أعطاه عقلاً يختار به ما يريد، وإرادة يحقق بها ما يختار، وجعل بعد هذه الحياة المؤقتة حياة دائمة في الآخرة، فيها يُكافأ المحسن في الجنة، ويُعاقب المسيء في جهنم.

وهذا الإله واحد أحد، لا شريك له يعبد معه، ولا وسيط يقرّب إليه ويشفع عنده بلا إذنه، فالعبادة له وحده خالصة، بكل مظاهرها.

له مخلوقات مادية ظاهرة لنا، تُدرَك بالحواس، ومخلوقات مغيَّبة عنا، بعضها جماد وبعضها حيّ مكلّف، ومن الأحياء ما هو خالص للخير المحض (وهم الملائكة) ومنها ما هو مخصوص بالشر المحض (وهم الشياطين) (١١)، وما هو مختلط، منه الخيِّر والشرير، والصالح والطالح (وهم الإنس والجن).

وأنه يختار ناساً من البشر، ينزل عليهم الملك بالشرع الإلهي ليبلّغوه البشر، وهؤلاء هم الرسل. وأن هذه الشرائع تتضمنها كتب وصحائف أنزلت من السماء، ينسخ المتأخر منها ما تقدّمه أو يعدّله. وأن آخر هذه الكتب هو القرآن، وقد حُرِّفت الكتب والصحف قبله، أو ضاعت ونُسيت، وبقي هو سالماً من التحريف والضياع. وأن آخر هؤلاء الرسل والأنبياء هو محمد بن عبد الله العربي القرشي، خُتمت به الرسالات، وبدينه الأديان، فلا نبي بعده صلى الله عليه وبارك.

فالقرآن هو دستور الإسلام، فمن صدَّق بأنه من عند الله، وآمن به جملة وتفصيلاً سمي (مؤمناً). والإيمان بهذا المعنى، لا يطّلع عليه إلا الله، لأن البشر لا يَشُقّون قلوب الناس، ولا يعلمون ما فيها، لذلك وجب عليه - ليعدّه المسلمون واحداً منهم - أن يعلن هذا الإيمان بالنطق بلسانه بالشهادتين.

وهما : (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله).

فإذا نطق بهما صار مسلماً، أي : (مواطناً) أصيلاً في دولة الإسلام، وتمتّع بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلم، وقَبِل بالقيام بجميع الأعمال التي يكلّفه بها الإسلام.

(١١) والشياطين من الجن .

وهذه الأعمال (أي العبادات) قليلة، سهلة، ليس فيها مشقة بليغة، وليس فيها حرج.
أولها : أن يركع في الصباح ركعتين يناجي فيهما ربه، يسأله من خيره، ويعوذ به من عقابه، وأن يتوضأ قبلهما أي يغسل أطرافه، أو يغسل جسده كله (إن كانت به جنابة). وأن يركع في وسطه أربعاً، ثم أربعاً، وأن يركع بعد غياب الشمس ثلاثاً، وفي الليل أربعاً (١٢).
هذه هي الصلوات المفروضة، لا يستغرق أداؤها كلها نصف ساعة في اليوم، لا يُشترط لها مكان لا تؤدَّى إلا فيه، ولا شخص معين (أي رجل دين) لا تصح إلى معه، ولا واسطة فيها (ولا في العبادات كلها) بين المسلم وربه.
الثاني : أن في السنة شهراً معيناً، يقدم فيه المسلم فطوره، فيجعله في آخر الليل بدلاً من أن يكون في أول النهار، ويؤخذر غداءه إلى ما بعد غروب الشمس، ويمتنع في النهار عن الطعام والشراب ومعاشرة النساء، فيكون من ذلك شهر صفاء لنفسه، واحة لمعدته، وتهذيب لخُلُقه، وصحة لجسده، ويكون هذا الشهر مظهراً من مظاهر الاجتماع على الخير، والتساوي في العيش.
الثالث : أنه إذا فضل عن نفقات نفسه، ونفقات عياله، مقدار من المال محدود، بقي سنة كاملة لا يحتاج إليه، لأنه في غنى عنه، كُلّف أن يُخرج منه بعد انقضاء السنة، مبلغ (٢,٥) في المئة، للفقراء والمحتاجين، لا يحس هو بثقلها، ويكون فيها عون بالغ للمحتاج، وركن وطيد للتضامن الاجتماعي، وشفاء من داء الفقر، الذي هو شر الأدواء.
الرابع : أن الإسلام رتب للمجتمع الإسلامي، اجتماعات دورية :
اجتماع بمثابة مجالس الحارات، يُعقد خمس مرات في اليوم، مثل حصص المدرسة، هو (صلاة الجماعة). يوثّق كل عضو فيه عبوديته لله بالقيام بين يديه، ويكون من ثماره أن يعين الأقوياء الضعيف، ويعلّم العلماء الجاهل، ويسعف الأغنياء الفقير. ومدة انعقاده ربع ساعة. فلا يعطل عاملاً عن عمله، ولا تاجراً عن تجارته، وإذا تم الاجتماع وتخلف عنه مسلم فصلّى في بيته، لم يُعاقَب على تخلفه ولكن فاته ثواب حضوره.
واجتماع لمجالس الأحياء، يُعقد مرة في الأسبوع، هو (صلاة الجمعة)، ومدة انعقاده أقل من ساعة. وحضوره واجب على الرجال.
واجتماع كمجالس المدينة، يعقد مرتين في السنة، وهو (صلاة العيد)، وحضوره ليس على سبيل الإلزام، ومدة انعقاده أقل من ساعة.
واجتماع، هو كالمؤتمر الشعبي العام، يُعقد في السنة في مكان معين، هو في الحقيقة دورة توجيهية ورياضية وفكرية، يُكلّف المسلم بأن يحضره مرة واحدة في العمر، إذا قدر على حضوره، وهو (الحج).

---

(١٢) وتحديد وقتها وبيان كيفيتها يكون بعد .

هذه هي (العبادات) الأصلية التي يُكلَّف بها.

ومن العبادات أن يمتنع عن أفعال معينة، أفعال يُجمع عقلاء الدنيا على أنها شر، وأن الواجب الامتناع عنها، كالقتل بلا حق، والتعدي على الناس، والظلم بأنواعه، والمسكر الذي يغيّب العقل، والزنا الذي يذهب الأعراض، ويخلط الأنساب، والربا، والكذب، والغش، والغدر، والفرار من الخدمة العسكرية التي يراد منها إعلاء كلمة الله، ومنها (بل من أشدها) عقوق الوالدين، والحلف كاذباً، وشهادة الزور، وأمثال ذلك من الأعمال القبيحة الشريرة، التي تجمع العقول على إدراك قبحها وشرها.

وإذا قصّر المسلم في القيام ببعض الواجبات، أو ارتكب بعض الممنوعات، ثم رجع وتاب وطلب العفو من الله، فإن الله يعفو عنه، وإن لم يتب فإنه يبقى مسلماً معدوداً في المسلمين، ولكنه يكون (عاصياً) يستحق العقاب في الآخرة، ولكن عقابه مؤقت، لا يدوم دوام عقاب الكافر.

أما إذا أنكر بعض المبادئ، أي العقائد الأصلية، أو شك فيها، أو جحد واجباً مجمعاً على وجوبه، أو حراماً مجمعاً على حرمته، أو أنكر ولو كلمة واحدة من القرآن، فإنه يخرج من الدين، ويعتبر مرتداً تُنزع عنه الجنسية الإسلامية. والردة أكبر جريمة في الإسلام، فهي كالخيانة العظمى في القوانين الحديثة، جزاؤها - إن لم يرجع عنها ويتنصّل منها - الموت.

قد يترك المسلم بعض الواجبات، أو يأتي بعض الممنوعات، وهو معترف بالوجوب والحرمة، فيبقى مسلماً، ولكنه يكون (عاصياً)، أما الإيمان فلا يتجزأ، فلو آمن مثلاً بتسع وتسعين عقيدة، وكفر بواحدة فقط، كان كافراً.

وقد يكون المسلم غير مؤمن، كمن انتسب إلى حزب أو جمعية، وحضر اجتماعاتها، ودفع اشتراكاتها، وقام بواجب العضو فيها، ولكنه لم يقبل بمبادئها، و لم يقتنع بصحتها، بل دخل فيها للتجسس عليها، أو إفساد أمرها.

وهذا هو (المنافق) (١٣) الذي ينطق الشهادتين، ويؤدي العبادات ظاهراً، ولكنه غير مؤمن بالحقيقة ولا ناجٍ عند الله، وإن كان عند الناس معتبراً من المسلمين، لأن الناس لهم الظواهر، والله وحده يطّلع على السرائر والقلوب.

فإذا آمن الإنسان بالأسس الفكرية للإسلام، وهي التصديق المطلق بالله، وتنزيهه عن الشريك والوسيط، وبالملائكة، وبالرسل، وبالكتب، وبالحياة الآخرة، وبالقدر، ونطق الشهادتين، وصلى الفرائض، وصام رمضان، وأدى زكاة ماله إن وجبت عليه الزكاة، وحج مرة في العمر إن استطاع، وامتنع عن المحرمات المُجْمَع على حرمتها ؛ فهو مسلم

---

(١٣) النفاق هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر . وليس منه قوله ﷺ : " آية المنافق ثلاث ... " إلخ . فمن أخلف الوعد ، وكذب القول ، أو خان الأمانة ، لا يعتبر بهذا وحده كافراً ، وإنما هو نفاق اجتماعي ، غير النفاق الأصلي ، نفاق العقيدة الذي ذكرناه .

مؤمن، ولكن ثمرة الإيمان لا تظهر منه، ولا يُحسّ بحلاوته، ولا يكون مسلماً كاملاً، حتى يسلك في حياته مسلك المسلم المؤمن. وقد لخص رسول الله ﷺ منهاج هذا السلوك، بجملة واحدة، كلمة من جوامع الكلم، ومن أبلغ ما نطق به بشر، كلمة تجمع الخير كله، خير الدنيا، وما في عقبه من خير الآخرة.

هي : أن يتذكر المسلم في قيامه وقعوده، وخلوته وجلوته، وجدّه وهزله، وفي حالاتها كلها، أن الله مطلع عليه، وناظر إليه، فلا يعصيه وهو يذكر أنه يراه، ولا يخاف أو ييأس وهو يعلم أنه معه، ولا يشعر بالوحشة وهو يناجيه، لا يحس بالحاجة إلى أحد وهو يطلب منه ويدعوه، فإن عصى - ومن طبيعته أن يعصي - رجع وتاب، فتاب الله عليه.

كل ذلك من قوله ﷺ في تعريف (الإحسان) : " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".

هذا هو دين الإسلام بالقول المجمل، وتفصيله يأتي : في كتابي تعريف عام بدين الإسلام إن شاء الله.

هذه دعوتنا

• دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

• دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله ، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

• دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

• دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك　　　وأحبار سوء ورهبانها

• دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

• دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

• ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.

منبر التوحيد والجهاد

www.alsunnah.info
www.tawhed.ws
www.almaqdese.com